فى سبيل الواجب

مرت أيام كثيرة لم يأخذ فيها جابر إجازته المعتادة كما كان يأخذها قبل أن يأتى أحمد ويصبح مسئولاً عن هذه الإجازات . . وبينها وبين نفسها تنظر آمال إلى أحمد فى شك وتتهمه فى هذا المنع . . ترى هل يقصد ذلك؟ هل يمنع لقاءهما لحاجة فى نفسه وتؤثر عاطفته على تنظيم عمله فيحرم شقيقه من إجازته؟ وترتفع دواعى الأنانية على روح الواجب والعدل . . أسئلة ملحّة لا تجد لها جوابًا يقنعها أو تفسيرًا يرضيها .

وبعد طول انتظار وصبر أخذ جابر إجازة قصيرة . . وعلمت آمال بموعد وصوله فنسيت كل شىء أعدته . . وفكرت فيه . . ولم يستيقظ فى وجدانها غير صوت الحب ولهفة اللقاء . . وما دار بخاطرها من قبل كان كضباب خفيف انقشع تحت أشعة الهوى الدافئة .

وقبل الموعد ذهبت آمال إلى الشاطئ ووقفت تتطلع إلى الأفق البعيد فى انتظار الحبيب القادم . . وتتمنى لو انشقّ البحر فوجدته أمامها لتسكت هذا النداء الملحّ فى قلبها .

ويتهادى بالقرب منها زورق على صفحات الماء فتتخيله يرقص طربًا ونشوة . . ويقف قريبًا منها وتهلّ عليها طلعة جابر فتقابله بكل ما فى وجدانها من حب ادخرته شهورًا طويلة وكادت تعصف به خواطر وأوهام . . ويبتعدان عن الشاطئ ملتصقين . . وكلما ابتعدا عن الناس ازدادت قربًا منه . . كأنما تبعد شبح أخيه الذى تتخيله واقفًا بينهما يريد أن يحطم هذا الحب ويستأثر به لنفسه . . إنه يستكثر عليهما نعيمًا يذوقانه بعد طول حرمان وشقاء .

وذات مرة قالت لـها منى : دعينا نُسكت عواطفنا فلا وقت للحب الآن ولا مكان لـه فى قلوب حزينة أوجعها اليتم وأضنتها الكوارث وعصفت بها رياح الشر والخراب.

وهى ترى أنها الآن فى أسعد أيام الحب.. فما أجمل الراحة بعد التعب والارتواء بعد ظمأ طويل؟! وأخبرها جابر أنه سيبقى معها يومًا واحدًا ثم يعود إلى عملـه.. وأنه اختلسه لشدة شوقه إليها وسيمنح أجازة أطول بعد ذلك.

وساقتها أقدامها دون أن يدريا إلى شقة جابر ودخلتها دون أن تتردد.. أليس هو الحبيب الذى علقت عليه كل الأمل وترى فيه صورة الشقيق الذى فقدته، والأب الذى حرمت عطفه، والملجأ الحصين الذى احتمت به بعد سنوات من الفراغ الموحش والضياع المميت.

إنها تخاف من فراقه وما وراء هذا الفراق.. تريده خالصًا لنفسها فلا يفكر فى البعد عنها. وأفاقا من نشوتهما وجلسا يفكران فى المستقبل فأكد لـها أنه سيعود بعد أيام قليلة ليعقد قرانه عليها ويعلنا زواجهما أمام الناس.

وعادت آمال إلى منزلـها دون أن تتبين أسعيدة هى أم شقية؟ وأصابت فى تفكيرها أم أخطأت؟ أخذت دوامة من الحيرة تتقاذفها وتكاد أن تعصف بها.. وتركت نفسه للقدر.

وعاد جابر إلى عملـه وسياط من نار تلـهب عقلـه ووجدانه. يجب أن يُصلح خطأه ويضع الأمور فى مكانها الصحيح.. ويعلن زواجه اليوم قبل الغد.. فمن يدرى ماذا يحمل المستقبل فى طياته وهو يواجه مخاطر وأهوالاً فى صباحه ومسائه.. وماذا سيكون موقف آمال بعد ذلك؟ هل ستواجه النتائج بمفردها والمجتمع لن يغفر هذا الخطأ؟ مهما حاولت تبريره والإفصاح عن صاحبه..

وأول اللائمين هم أسرتها وأصدقاؤها وربما أخوه أحمد . . عليه أن يتدارك هذا الأمر قبل فوات الأوان .

ويدق جرس الجهاز الآلى فيسمع أحمد صوت أخيه جابر يطلب منه إجازة سريعة ليوم واحد . . ويثور أحمد لـهذا العبث الطفولى . . فلا وقت للإجازة للآن ولا بديل عنه فى عملـه . . ويلحّ جابر فى هذا الطلب . . ويحاول أحمد أن يعرف السبب الذى يدعوه إلى هذه العجلة . . وآمال تقف قريبة منه تسمع الحديث الذى يدور بين الأخوين وتتمنى لو استجاب أحمد لرغبته فيسعدها ويسعده .

ولم يجد جابر مناصًا من أن يقول لأخيه إنه يريد أن يتزوج . . يريد أن يعقد على أمال خلال ساعات ثم يعود إلى عملـه . .

ويبدو على وجه أحمد الذهول والحيرة . . أىّ زواج يريده جابر؟ كيف يتم الزواج بهذا الأسلوب؟ . . إنه فى حاجة إلى وقت وترتيب . . فما الذى يدفعهما إلى ذلك الآن؟

ونظر أحمد إلى آمال . . وتساؤلات كثيرة تطنّ فى أذنيه . . بينما سقطت سماعة التليفون إلى جواره وعيناه معلقتان بآمال التى أسرعت بالخروج وهى تكاد تتعثر فى خطاها . . وشاهد قطرات من الدمع تنحدر على خديها فى صمت تحمل فى انحدارها معانى كثيرة من الرجاء والتوسل لم يستطع أحمد أن يستوعبهما على وجه اليقين .

وتمضى أيام وأسابيع ولم يسمح لجابر بأخذ الإجازة التى وعده بها وألحّ فى طلبها ووقف أخوه حائلاً بينها .

وبدأ القلق يستبدّ بآمال، وظهرت العصبية فى تصرفاتها وأفعالـها . .

واتهمت أحمد فيما بينها وبين نفسها بالتسبب فى هذا التأخير وعاودتها الأفكار القديمة مرة أخرى . . إنه ما يزال يتمناها لنفسه ويود التفريق بينها وبين جابر ، وما يُظهره من بعد عنها ليس إلا خداعًا وكذبًا وتمويهًا . . إنه لا يعرف حقيقة ما بينها وبين أخيه وربما لو عرف لتغيرت نظرته وفقد الأمل فيها . . وكيف يعرف؟ ومن سيخبره؟ . . أن كل يوم يمر يزيدها خوفًا وعذابًا . . وماذا تقول لو انكشفت حقيقتها على كره منها؟ وبم تبرر ما فعلت؟ هل لحبها لجابر وخوفها عليه؟ أم لـهروبها من أحمد ومحاولة البعد عنه؟

واستبدت بها الخواطر الحزينة دون أن تجد من يقف بجوارها غير صديقتها منى التى شاركتها مشاعرها وهونت عليها الأمر حتى لا تستسلم لليأس .

وفى ليلة داخل برج المراقبة يسمعون صفارات الإنذار تدوى من إحدى البواخر الضخمة حاملة البترول . . وقد شبت فيها النيران . . وفوق الباخرة المرشد جابر عبد الخالق وعليه أن يعبر بها بعيد عن مكامن الخطر . . وتشتد النيران ويصبح من الصعب إخمادها . . ويقف الجميع بجوار أحمد فى برج المراقبة يشاهدون المحاولات المستميتة لإطفاء النيران ولكنها تستعصى على كل محاولة ويزداد انتشارها وتصل إلى كل مكان فيها . . وأصبح هناك خوف من انفجارها فيتعطل سير الملاحة ، وتدمر السفن القريبة منها ، وتلوث الشاطئ بالبترول الذى سينسكب بعد غرقها . . ولا بد من اتخاذ قرار سريع وحاسم من أحمد الذى بيده الأمر . . ودون تردد يصدر أوامره إلى أخيه جابر بقيادة السفينة بأقصى سرعة إلى المياه العميقة بعيداً عن موطن الخطر حفاظًا على سلامة الميناء والسفن . . ثم يتركها لقائدها يتصرف فيها بما يراه ويعود فى أحد زوارق الإنقاذ .

ويسرع جابر إلى أبعد منطقة فى البحر ويقود السفينة بسرعة جنونية والنيران

تتزايد وتحاصر السفينة وركابها من كل جانب ويطمئن من برج المراقبة على سلامة كل شيء فلا يشاهدون من السفينة إلا ألسنة اللهب وهى تتراقص فيها على بعد كبير.

واحدة فقط تقف ترتعش والخوف يكاد يفترسها.. إنها آمال.. وينظر إليها الجميع.. فهم يعرفون ما بينها وبين جابر.. ويحاولون أن يزرعوا الطمأنينة والـهدوء فى قلبها.. ولكن هيهات فهم لا يدركون ما بها.

ويوشك جابر أن يغادر السفينة ولكنه يجد أمامه فجأة سفينة كبيرة للركاب.. ولو ترك سفينته لاصطدمت بها. وكانت الكارثة البشرية أعظم وأفدح.

وفى لحظة يتغلب فيها الضمير والواجب على كل شيء فى الحياة.. يتخذ قراره بنفسه.. فيأمر البحارة بمغادرة السفينة ويبقى بها وحده ويقودها بعيداً عن كل خطر وتتشبث يده بعجلة القيادة وينطلق بها بعيداً لا يرى أمامه غير ظلام مطبق وأمواج عالية كالجبال.. وأتون مشتعل يلفح وجهه وجسمه.. ظلمات بعضها فوق بعض لا يتبين خلالـها وسيلة لنجاته.. وتندفع السفينة تصارع الـهول وتقاومه.

وفى برج المراقبة يسمع الواقفون انفجاراً مدوياً يهز الميناء كلـه.. ويصل صوته إلى سكان المدينة فيفزعون.. وتتحول السفينة العملاقة إلى كرة من اللهب تتقاذفها الأمواج وتوشك أن تلتهمها لتتوارى فى الأعماق.

وتسرع زوارق الإنقاذ بأنوارها الكاشفة تبحث عن الناجين الذين تمكنوا من مغادرتها قبل أن تنفجر.. وتركوا مصيرهم بيدى ظلام الليل وظلام البحر.

وعادت الزوارق مع طلوع الفجر بعد انتشالـها الذين نجوا ولم يكن من بينهم

جابر . . وقال الناجون إن السفينة انفجرت بالمرشد جابر عبدالخالق بعد أن أمرهم بمغادرتها . .

وأطبقت أنياب الموج فاها على السفينة ومَن بقى فيها، واستقرت أشلاؤها فى الغور السحيق . . ولم يبق منهما غير بقع من الزيت تطفو هنا وهناك .

وفى اليوم التالى نشرت الصحف صورة جابر وتحدثت عن بطولته الفريدة . . وأنه ضحى بحياته فى سبيل أداء واجبه، ولولاه لحدثت كارثة من أبشع الكوارث فى ميناء الإسماعيلية . . وبفضل شجاعته نجت سفينة للركاب تحمل على ظهرها عدداً كبيراً من المسافرين من دمار مؤكد .

وأصيبت آمال بحالة من الذهول من تأثير الصدمة وصارت لا تعى شيئًا مما حولـها . . وما قيمة ما تراه من عطف الناس ورثاء الأقارب وتمجيد الصحف؟ هذا كلـه لن يغنى عنها شيئًا .

لقد مات سندها وحبيبها وزوجها أمام الله وأب لجنين تحس به وحدها الآن دون غيرها من الناس . . وغداً سيعرف ذلك الجميع . . وربما يصدقون أو يكذبون أو يتركون ألسنتهم تقول ما تريد .

واعتكفت فى منزلـها عدة أيام لا تقوى على الحركة أو الخروج، وحينما غادرت المنزل إلى شاطئ الذكريات حيث كانت تلتقى بحبيبها الذاهب . . وقفت طويلاً تحت شرفة المسكن الذى ضمها مع جابر ساعات قليلة . . ولكنها أجمل ما فى حياتها من ذكريات . . لقد ختما قصة الحب فى تلك الشقة وكتبا فيها السطور الأخيرة . . ليت أثاثها ومتاعها يتكلم إذًا لتحدث عن أروع قصة للحب نسجت خيوطها هنا .

وحاولت أمها أن تسرّى عنها وتذكّرها بأن جابراً مات كما يموت الأبطال،

وكما مات أبوها وأخوها وأبوه هو أيضًا وأخوه. . وكما مات جزء من أخيه أحمد. . فى ساحة من ساحات النضال.

وانتفض جسدها حينما سمعت اسم أحمد. . إن فى نفسها ثورة عليه فقد كان السبب فى كل ما حدث. . فهو الذى أصدر أوامره إليه ليذهب إلى السفينة دون غيره ويتوغل بها فى البحر ولم يبحث عن بديل غيره. ووقف أمام سعادتهما من قبل فلم يعطه الإجازة التى طلبها ليتم زواجه. . وعرقل لقاءه بها أكثر من مرة. . بل إنه أرادها لنفسه دون أخيه. . ولو نصبت محكمة عادلة لكان أحمد هو الجانى الأول فى قضية جابر.

وتمر أيام عصيبة تحاول فيها آمال أن تتمسك بالصبر وتبحث عن حل لمأساتها. . وجففت دموعها وارتدت السواد حدادًا على من هو فى الواقع زوجها. . حتى تمهد الطريق لما تريد أن تفصح عنه بعد ذلك.

وذهبت إلى مكتبها واستقبلـها زملاؤها كما يستقبلون زميلاً مصابًا فى عزيز عليه، واختلفت نظرتهم إليها بين حزين لـها ومشفق عليها، ومتشكك فى أمرها.

وعلم أحمد بوصولـها. . فتقدم إليها وهو متردد خائف وحياها وهنأها بسلامة الوصول. . وردت تحيته فى فتور. . ثم انكبت على عملـها. . وعاد أدراجه. . إنه يشعر بينه وبين نفسه بالذنب. . وإن كان لم يتعمده. . كان الواجب عنده فوق كل اعتبار. . وفى الموقف الأخير لم يُرد بأخيه شرًّا فلم يتخيل أن يصل به القدر إلى منتهاه. . وما هو إلا وسيلة لمشَيئة أكبر من جميع وسائل البشر. . إنها مشيئة الله.

وهو لا ينكر أن عواطفه تلاعبت به. . إلا أنه استطاع أن يكبح جماحها عند

منحدر الخطر . . وصمم على أن ينجو بنفسه وبآمال وجابر من لوثة هذه العاطفة . .ولم يدرك تصميم جابر على زواجه من آمال إلا أخيراً . . أدركه بحسه كأخ ، وبشعوره كرجل لـه نزواته وأخطاؤه . . ولولا حادث السفينة لأخذ جابر إجازة طويلة أعدها لـه وكانت بدايتها صبيحة اليوم التالى لـهذا الحادث المشؤوم . . ولكننا نريد والله يفعل ما يريد .

واستراح أحمد بعض الشيء لـهذا الحديث الصامت مع نفسه . . وعاد إلى عملـه بين حزن على أخيه ورجاء فى آمال . . وتطلع للمستقبل .

وفى المساء أنهت آمال عملـها وتأهبت للانصراف إلى منزلـها فاستأذنها أحمد فى أن يسير معها قليلاً . . وبعد صمت أطبق عليها قال لـها أحمد : لقد سرنا فى هذا المكان منذ شهور . . ما أسرع مرور الأيام ولم يَدُر بخاطرنا ما تخبئه من غدر . . إنها تسعد لحظة وتُشقى لحظات . . ومازلت أتذكر كلماتك معى . . يجب أن نعيش فالحياة أقوى من كل شيء . . ومادامت أنفاسنا تتردد . . فلا نحاول أن نكتمها باليأس والحزن . . بل يجب أن نتشبث بالأمل ونتعلق به ونطلع إلى الأمام دون أن ننظر إلى الخلف حتى لا نتعثر . . أليست هذه كلماتك يا آمال؟ إن جابراً أخى ولقد بكيت عليه كثيراً . . ويعلم الله أنى لم أرد به سوءاً أبداً . . ربما غلبتنى عواطفى يومًا ما ولكنها لم تقطع ما بيننا أبداً أو تتسبب فى حقد أو جفاء . . يجب أن تنسى يا آمال ولا تذكرى نفسك وتذكرينى بما مضى فهو صفحة طويت لا نريد قراءتها مرة أخرى .

وتردد آمال : ليس فى استطاعتى أن أنسى . . هناك أشياء يعجز الإنسان عن نسيانها . . لقد أحببت جابراً وحرصت على أن يكون لى ولا يفارقنى . . كنت أخشى فراقه . . وأخاف منك أنت يا أحمد . . أحسست بأنك تريد أن تنتزعنى منه وأنك سيف مسلط على عنقى . . فارتعدتُ كثيراً لـهذا الإحساس . .

وساورنى هذا الشعور فى لقائى الأخير مع جابر . . أردت أن ارتبط به ونضع أنفسنا أمام الأمر الواقع فلا نترك مجالاً لعاطفة أخرى تتسلل لواحد منا فتخدش ما بيننا من حب .

وهذا جابر قد مات، وسيكون لـه ابن يأتى إلى الوجود ولا يجد لـه أبًا . . سوف يقبلـه البعض وينكره الآخرون .

وأنت يا أحمد سبب قوى لما حدث، ولولا خوفى من عواطفك أن تطيش معى أو مع جابر ما لجأت إلى هذا الأسلوب الذى أوقعتنى فيه وظننته الطريق السليم لنجاة كل منا من سوء المصير . أرأيت يا أحمد أن هذه أشياء لا يمكن أن تنسى مهما كانت الظروف؟

وتركته عائدة إلى منزلـها . . ولم يتحرك هو من مكانه وعلى وجهه يبدو عذاب كبير تنوء بحملـه الجبال حتى أوشك الليل أن ينقضى .

obeikandl.com